

بانكسي في غزة: الأمل صار اسماً آخر للألم

في اليوم الذي فُجعت عيوننا بمشاهد تدمير حضارة نينوى في متحف الموصل، حيث كان المغول الجدد من جنود "داعش" ينتقمون من تاريخنا وذاكرتنا، امتلأت وسائل الاتصال بصور بانكسي الآتية من غزة.

الفنان يرسم الحياة فوق البربرية الصهيونية التي دمرت غزة، والمغول الجدد يدمرون الثور المجنح في المتحف الذي بُني كي تكون لنا ذاكرة، مستكملين الدمار الذي صنعه تتار الأنظمة المستبدة.

دمار هنا وخراب هناك، ماذا سنقول للسيّاب حين سيسألنا عن "بابل الحزينة المهذّمة"، وماذا سنروي لجواد سليم الذي حوّل الموروث الأشوري البابلي إلى فن ينطق بتجربتنا المعاصرة؟ محاصرون بالخراب، فماذا نقول؟ في الماضي لخص المتنبّي حيرتنا حين قال:

وسوى الروم خلفَ ظهركَ رومٌ فعلى أيّ جانبِكَ تميلُ

وفي زمننا حاول محمود درويش أن يعقد "هدنة مع المغول أمام غابة السنديان" فلم يجد الغابة ولم تكن هدنة:



لم نجد أحداً يقبل
السلم.. لا نحنُ نحنُ
ولا غيرُنا غيرُنا /
البنادقُ مكسورة..
والحمامُ يطير بعيداً
بعيداً.. لم نجدُ أحداً
ههنا / لم نجدُ
أحداً... / لم نجدُ
غابةَ السنديان.

الهدنة مستحيلة،
فالمغول هم المغول

على بقايا جدار في غزة

سواء اتخذوا اسم "الدولة الإسلامية"، أم اسم "الدولة اليهودية"، ولا مفر، نحن محاصرون من الجانبين، وخيارنا ألا نموت.

فنان الغرافيتي البريطاني الذي لا نعرف اسمه لأنه خبأه في رسومه المزروعة على حيطان المدن في العالم، جاء إلى فلسطين مرتين:

المرّة الأولى من أجل أن يكسر حائط الفصل العنصري الذي بناه الصهيونيون في الضفة، فأحدث في الحائط فجوات من الأمل.

المرّة الثانية كانت يوم الخميس ٢٦ شباط / فبراير ٢٠١٥، حين نشر بانكسي على "الإنستغرام" رسومه فوق دمار غزة، إلى جانب فيلم قصير عن رحلته إلى القطاع الذي دمرته البربرية الصهيونية.

وفي المرتين كنّا على موعد مع الحياة في مواجهة الموت.

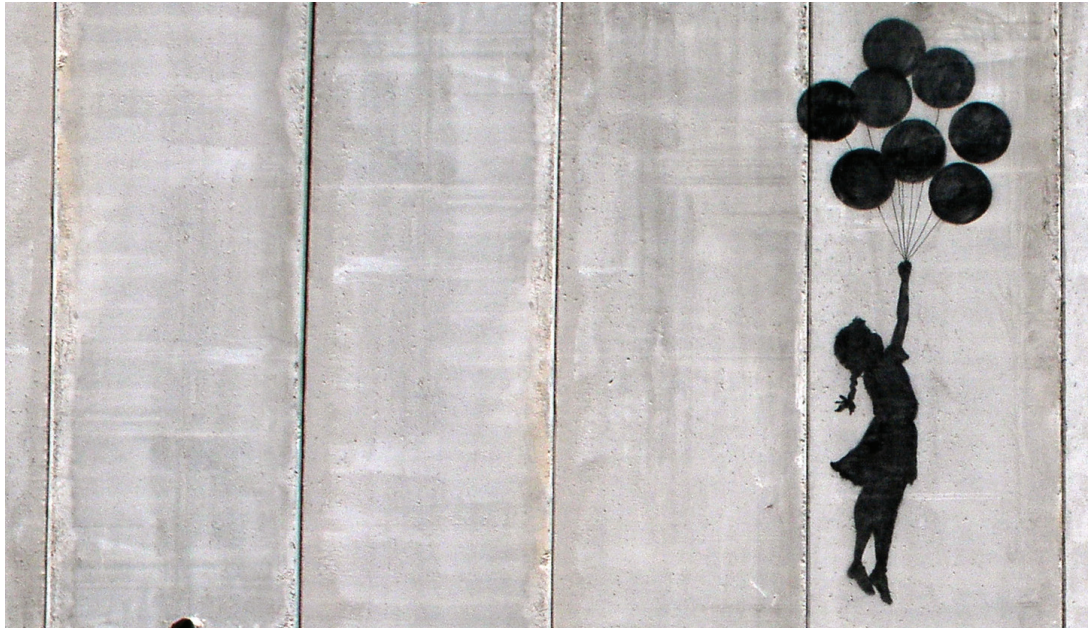
لا يهم من هو بانكسي، أكان فناناً يختفي خلف حيطان العالم، أم مجموعة من الفنانين، فالرجل الذي صارت رسومه تُسرق عن الحيّطان كي تباع بمبالغ خيالية، ليس معنياً سوى بالتعبير عن ألم هذا العالم وتوقه إلى الحرية.

وحين نتكلم اليوم على الحرية، نتكلم على فلسطين أولاً.

جروح العرب لم تعد تُحصى، من الهمجية التي تنتقم من تاريخنا بتاريخنا، إلى الهمجية التي صَدّرتها العنصرية الأوروبية إلينا على شكل ضحية تم تحويلها إلى جلال.

من مذبحه إلى مذبحه، والأمل صار اسماً آخر للألم.

في كتاب بانكسي "الحائط والقطعة" (*Wall and Piece*)، والعنوان هو تصحيف لعنوان رواية تولستوي: "الحرب والسلام" (*War and Peace*)، نعثر على رسومه للجدار العنصري في الضفة



ظل الطفولة على جدار الفصل في الضفة

الغربية. وقد ترافقت الرسوم مع نص بليغ يلخص التباسات الحكاية بين الفن والحياة:

الرجل الكهل: أنت ترسم الجدار فتجعله يبدو جميلاً.
أنا: شكراً.

الرجل الكهل: لا نريده أن يكون جميلاً، نحن نكره هذا الجدار، اذهب من هنا.

لم يدافع الفنان عن نفسه وعن فنه، كتب الحوار عارياً من أي تعليق. لم يقل إن هذه الرسوم والخربشات لا تجعل الجدار جميلاً إلا بصفتها دعوة إلى هدمه.

ذهب بانكسي من "هنا" ليجد نفسه في غزة، وفي غزة صرخت الرسوم والكلمات: "إذا غسلنا أيدينا من الصراع بين القوي والضعيف لا نكون على الحياد، لأننا بهذا الموقف ننحاز إلى القوي." أطفال يلهون في أراجيح بُنيت على برج مراقبة عسكري إسرائيلي، و"مفكر رودان" يصير امرأة غزاوية على حائط مهدم.

غالباً ما توصف غزة بأنها أكبر سجن في العالم، لأن لا أحد يستطيع الدخول إليها أو مغادرتها، غير أن هذا التعبير لا يُنصف السجون لأنهم في السجون لا تقطع عنهم الكهرباء والماء عشوائياً كل يوم تقريباً.



جدار الفصل لا يلغي فسحة الأمل (الضفة)

ذهب بانكسي إلى سجن غزة كي يلتقط الألم لا كي يرسمه. والمفارقة الكبرى أن البربرية تكفلت برسم الألم الذي صار وشماً في عيوننا: من مشاهد الدمار في غزة، إلى مشاهد فقراء مصر النصاري يُذبحون، وصولاً إلى متحف الموصل. مهمة الفن ليس أن يصف بل أن يتخذ موقفاً. والموقف ليس خطاباً وإنما نمط حياة. تذهب إلى الألم كي تعيشه وترسم فوقه ألوان الحياة. هذا هو حال قطعة بيت حانون التي تلهو فوق الدمار. كيف نصف سلمى؟ طفلة بيت حانون التي عاشت أربعين يوماً، والتي تجمدت من البرد والمطر المتسرب داخل

”برّاكية“ البلاستيك التي تعيش فيها عائلتها منذ تدمير بيتهم؟ كريس غانس المتحدث باسم



كان بيتاً في غزة قبل أن تدمره إسرائيل، وربما كان فيه قطة



برج المراقبة.. أرجوحة أطفال في غزة



ظلال تشكل سُلماً على جدار الفصل في الضفة

الأونروا روى الحكاية كما سمعها من أمها ميرفت: "كانت متجمدة كالبوظة"، قالت ميرفت أمها. لم يعد الفن صالحاً للوصف، فالهمجية تصف نفسها بنفسها بلا خجل. إنه زمن استباحة الإنسان. زمن الوقاحة المطلقة والفجور. هكذا يطلع الفن من شقوق الدمار كما تولد الحياة من حافة الموت. ... تحية إلى بانكسي. ■

الياس خوري